

طبيعة الإسلام

يواجه المسلمون الأمريكيون ثلاث مهام رئيسية:

(١) أن يسلّموا دينهم إلى الجيل التالي سليماً خالصاً (فى مجتمع يتميز بالتساهل والاستهلاكية إلى قدر كبير).

(٢) إقامة الدليل أمام الشعب الأمريكى على إمكانات الإسلام الروحية والديموقراطية، مظهرين أن هذا الدين وثيق الصلة بالحل لمعظم - إن لم يكن مجمل - بلايا المجتمع المعاصر... وأخيراً.

(٣) المساعدة على التجديد وإعادة التركيز للعالم الإسلامى على اتساعه، وبالأخص من خلال الفقه الإسلامى المنفتح (غير المعوق) الذى يركز على جوهر عقيدتنا .

مراد ويلفريد هوفمان ، استانبول، ١٩٩٧م.

يشكل الإسلام (أو ينبغى له أن يكون) محور حياة كل منتسب لجماعته، وينبغى على المرء لفهم نموذج المسلم الأمريكى أن يتسلح بإدراك المفاهيم التى تشكل حجر الزاوية والتى يتميز بها الإسلام، وليس الغرض من هذا الجزء أن يكون حواراً كاملاً عن أسلوب الحياة الإسلامية أو عن شريعة الإسلام؛ بل إنه محاولة للكشف عن بعض الخيوط والمفاهيم العامة من خلال إبراز الفقه المتعلق بقضايا متنوعة قد أسىء فهمها.

وأنا مضطر مرة أخرى لأن أوضح أن تلك المحاولة ليست نظرة - لطبيعة الإسلام -

ليبرالية، ولا يسارية، ولا اعتذارية، ولا انتقائية، ولا توافقية، إنها تمثل الفكر الإسلامى للتيار السائد، المتزن، المعتدل، مثلما يبرهن عليه فقه المسلمين الأمريكيين مع الالتزام التام بالشرعية (القانون الإسلامى).

يوجد منذ الحادى عشر من سبتمبر وابل من نيران الكتابات والتغطية الإعلامية عن الإسلام، الكثير من السلبيات كانت نتيجة لأخطاء غير متعمدة، أما الباقى (ومعظمه شفاهى) فيعود إلى حد كبير إلى خبث طوية بعض جماعات المصالح الخاصة، وسنحاول من خلال هذا الجزء توضيح الأخطاء غير المقصودة الناتجة عن نقص المعلومات.

الخطأ الأكثر شيوعاً والسائد بين المعلقين على الإسلام فى جميع أنحاء العالم (حتى فى داخل العالم الإسلامى)، هو أن الإسلام يصنف ضمن نموذج الدين المعاصر/ الغربى، ويتج عن مثل هذا التحليل صياغات من مثل «التجديد الإسلامى»، مع أفكار أخرى مستعارة من الكنيسة الرسمية والكنائس المنفصلة، وعادة ما يرجع السبب فى هذه الأخطاء إلى نقص المعرفة باللغة العربية، وهى اللغة التاريخية للنصوص الإسلامية، وهى أيضاً لغة الحضارة الإسلامية.

يختلف الإسلام كدين - أسلوب حياة - على مستواه التأسيسى اختلافًا كبيراً عن المسيحية واليهودية؛ لذلك فعلى الرغم من أن «الديانة» [بمعنى الطقوس] هى أحد مكونات الإسلام، لكنها لا تكفى بمفردها لتناول شمولية الخوض لإرادة الله وفقاً للرسالة التى أنزلت على محمد ﷺ.

«ليس الدين كما يقدمه لنا القرآن مسألة طقوس وشعائر، إنه يهتم ويتعلق بالهدف الشامل للحياة، وبرنامج العمل الذى يمكن به الوصول إلى هذا الهدف؛ ويعطى الدين المجال الكامل لمبادرة الإنسان وحرية اختياره، وأنه يخاطب الشخص الحر والكيس الفطن، والذى يملك الشجاعة على التفكير، والحكم، والفعل من أجل ذاته، ويوفر الدين المبادئ العريضة التى تهب الإنسان الهداية فى مغامرة الحياة، والتى تعينه على الوصول إلى مرافق التعرف على نفسه وإلى الرفاه الاجتماعى»^(١).

(١) ج. أ. برويز: تحدى الدين، ص ٧٧ / ١٩٦٧ م.

ويشير «مراد هوفمان» السفير الألماني السابق لدى الجزائر والمغرب^(١)، والفقيه المسلم الألماني إلى أن مدارس الفكر المتنوعة «لم تكن قط عرضاً من أعراض الانقسامات الحزبية، ولكنها دليل على الحيوية والسعة للتعددية الحقيقية داخل دوائر الفكر الإسلامي، فيما مثلته الشخصيات الأكاديمية البارزة كأبي حنيفة (مات عام ٧٦٧م)، ومالك بن أنس (مات عام ٧٩٥م)، ومحمد بن إدريس الشافعي (مات عام ٨٢٠م)، وأحمد بن حنبل (مات عام ٨٥٥م). فلم ينو أي منهم إقامة مذهب (للفكر الفقهي)». وحضور العديد من هؤلاء الفقهاء دروس بعضهم البعض هو حقيقة موثقة، هذا التنوع والاختلاف في الآراء هو جوهر فكر المفكرين الإسلاميين، من المهم لكي نفهم طبيعة الإسلام، أن نتفهم بعض الأعمدة الأساسية لتعاليمه.

الشريعة

«يهيئ القرآن عقل المسلم ليتقبل أولويات تعاليمه، ولتجنب رؤيتها في الفراغ، أو بأسلوب أحادي البعد»^(٢). وعلى النقيض من الرأي السائد، فليست الشريعة هي قانوناً اجتماعياً إصلاحياً يشمل مجموعة قواعد. يجتاح سوء الفهم هذا الفكر الإسلامي كوباء بنفس القدر الذي يجتاح به الكتابات العالمية عن الإسلام، «ينسى (بعض المسلمين) أن الشريعة الإسلامية تحمل في طياتها العناصر الجوهرية المتعلقة بمرونتها؛ بحيث إن بعض شروطها تتقبل التغيير طبقاً للتغير في الظروف بينما البعض الآخر لا يتغير، وذلك هو البعض القليل»^(٣).

الشريعة ذات شعب ثلاث، يشكل القرآن وهو كلمة الله الحقة، المصدر الأول، ويؤيده تراث (السنة: أقوال وأفعال) خاتم الأنبياء جميعاً محمد ﷺ، والاجتهاد هو الشعبة الثالثة ذات الديناميكية القصوى (معالجة المفاهيم التشريعية باستخدام العقل البشري واستخراج القوانين والتشريعات التي تتعامل مع المتغيرات المستجدة

(١) مراد هوفمان: الإسلام كبديل. ص ١٠٧ / ١٩٩٧م، وقد عمل قبل سفارته خبيراً نووياً في حلف الأطلنطي.

(٢) فتحي عثمان: الشريعة في مجتمع معاصر. ص ٥٥ / ١٩٩٤م.

(٣) حسان حنوت: هكذا سوف أقب بين يدي الله. ص ٤٩ / ١٩٩٩م.

التي لم يبينها القرآن ولا الحديث)، و يصنف د. حسان تحتوت في كتابه «قراءة العقل المسلم» مقاصد الشريعة إلى مقاصد خمسة، وتشير كتابات د. حسان تحتوت بوضوح إلى التصنيف التقليدي للمقاصد الذي وضعه فقهاء القرن الثالث مثل الشاطبي والشافعي، تجمع مقاصد الشريعة على حفظ وحماية :

(١) الحياة (النفس).

(٢) العقل.

(٣) الدين.

(٤) الملكية والافتناء (المال).

(٥) النسل.

وفي هذا الجزء سوف نهتم بالمقاصد الثلاثة الأولى.

المقصد الأول للشريعة وهو حفظ الحياة (النفس) ليس محدوداً بالنفس الإنسانية، الوعي البيئي واحترام البيئة هو أيضاً من الواجبات^(١)، والفهم الأولى للإسلام تتولد عنه فكرة أن الله قد أنعم علينا بكتابين: القرآن والثاني هو كتاب الكون^(٢)، يعبد المرء الله، ويتأمل في عظمته من خلال التمتع بجمال وضخامة الكون، ويوضح الله في القرآن أن هناك مخلوقات من خلقه هي نعمة للإنسان، وقد صاغ زعماء الطلبة المسلمين الأمريكيين بذكاء شديد هذه العبارة: «أنا مسلم، لذلك فأنا مهتم بالبيئة».

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤]. عادة ما يطلق القرآن على المظاهر لفظ «الآيات»، وهي الكلمة نفسها التي يمكن استخدامها لجمال القرآن الكريم، ومن اللافت للانتباه استخدام الكلمة نفسها «آيات» لجمال حكمة الله، وأيضاً لعجائب خلقه في عالم الطبيعة، والمطلوب من المسلم - ليكون موقناً بحق - الحفاظ بقوة على ما يتعلق بكل من العالم الطبيعي وكلمة الله، ويكتب الدكتور عثمان:

(١) حسان تحتوت: قراءة العقل المسلم. ص ٤٤.

(٢) حسان تحتوت: هكذا سوف أقف بين يدي الله. ص ٢٦/١٩٩٩م.

«الآيات التي تدل على الخالق وعلى بديع صنعه، تحيط بالناس إذا كانوا مهتمين بالتفكير والفهم، فهناك مخلوقات تعيش في الجبال، والسهول، والصحارى، والأودية، والغابات، والماء العذب والمالح، والهواء، وهى من طوائف وأم مختلفة تماثل الطوائف والأم الإنسانية المتنوعة، هؤلاء الذين يغلقون حواسهم دون تلقى وفهم آيات الطبيعة، والحياة بتنوعاتها الهائلة، قد اختاروا أن يحولوا بين أنفسهم وبين نور الحق، وفضلوا أن يحيوا في دجى ظلمات الجهل وضيق الأفق»^(١).

ويهدف المقصد الثانى للشريعة إلى حفظ العقل، وحفظ حريته على جميع الأصعدة متضمناً إبداء رأى، والكتابة، والفن... إلخ، ولا وجود لتناقض بين العقل والإيمان فى عقيدة المسلم، وينبغى رفض الوصاية على العقل، ولا يستطيع أى كائن أن يدعى السلطة على آخر فى هذا الصدد، ولا يتوجب فقط حماية العقل من الوصاية، ولكن يتوجب حمايته أيضاً من القمع، والخوف، والقلق، والضغط؛ وقد أتاحت رواية «سلمان رشدى» المشيرة للجدل «آيات شيطانية» اختباراً لتسامح هؤلاء الذين يملكون السلطة ويطلقون على أنفسهم مسمى زعماء المسلمين، وقد أصدر الإمام الخمينى فتوى بقتل رشدى لأسلوب تصويره للنبي محمد ﷺ وللإسلام؛ وقد كتبت المؤرخة كارين أرمسترونج: «الإكراه فى الأمور الدينية من المحرمات فى القرآن، وقد أبغضه "الملا صدرا" المعلم الروحى للخمينى، وعندما أصدر الخمينى فتواه... فقد تناقض مع دفاع "الملا صدرا" الحار عن حرية الفكر، وقد اعتبرت الفتوى غير إسلامية من قبل العلماء فى الأزهر وفى السعودية، وأدينت فى الشهر التالى من قبل ثمان وأربعين دولة من مجمل التسع والأربعين دولة الأعضاء فى المؤتمر الإسلامى»^(٢).

وفى الولايات المتحدة فقد جادل الفقهاء مثل د. ماهر حتحتوت بقوة عن الحق الإسلامى للكاتب فى الإفصاح عما يدور فى خلده، وعن معارضته فكرياً وليس تصنيفيته جسدياً، وقد تم تجاهل أو نسيان مثل هذه الأفعال عندما تحدث الصوت المسلم إلى أمريكا باتساعها. إن حرية الفكر والتعبير هما من حقوق الإنسان

(١) فتحى عثمان: مفاهيم القرآن. ص ٤٤ / ١٩٩٧ م.

(٢) كارين أرمسترونج: الإسلام. ص ١٧٤-١٧٥ / ٢٠٠٠ م.

الأساسية فى الشريعة ؛ لأنهما مطلوبتان لإظهار الخضوع الكامل لإرادة الله، وهما المعنى الجوهرى لكلمة «إسلام» .

﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ﴾ (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿ [الفرقان : ٤٣ ، ٤٤] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] .

عندما يتجاهل الإنسان مواهبه الفكرية والروحية الفريدة، ويسمح للرغبات اللحظية والأهواء بالتحكم الدائم فى تصرفاته ، فهو يتصرف عندئذ مثل البهائم ، للفكر الإنسانى دور جوهرى فى فهم المبادئ العامة ومقاصد الشريعة مثلما صورها القرآن والسنة، وبالمثل فى فهم الظروف الاجتماعية القائمة والحاجات التى تبرز ضرورة الاجتهاد^(١) .

تشير لفظة «الاجتهاد» إلى استخدام الدليل المتاح (دينى، أو علمى، أو إحصائى، أو اجتماعى)، للوصول إلى أفضل مسار يمكن اتخاذه بشرط ألا يتعارض مع القرآن أو السنة، أو مع مقاصد الشريعة^(٢)، ويمثل هذا السماح للإبداع الإنسانى -المتاح لفهم النموذج الإسلامى الأمريكى أو أى نموذج إسلامى، ولا يقتصر الاجتهاد على نطاق الاجتهاد المطلق للعلماء، لكنه يقع ضمن مسئولية، ويمثل حقًا لكل عقل مسلم .

لا يمثل حفظ العقل فرضًا فقط على كل مسلم، لكنه مطلوب أيضًا للفقهاء الإسلامى ؛ لكى يزدهر ويصبح ملائمًا لكل عصر، وينبغى على الفكر الإنسانى عند المسلم أن يكون نقطة الارتكاز للخضوع التام لإرادة الله .

الشريعة بتكوينها تقبل بوضوح فكرة القانون المستنبط أو المتطور، وتقول «أسماء جول حسن» المسلمة الأمريكية الكاتبة، والخريجة الحديثة من كلية الحقوق : «التوازن الذى حققه المسلمون الأمريكيون بين الثقافة الأمريكية والإسلام فى

(١) فتحى عثمان : الشريعة فى مجتمع معاصر . ص ٤٦ / ١٩٩٤م .

(٢) حسان حنوت : قراءة العقل المسلم . ص ٤٣ .

جوهره، هو قيام إسلام إصلاحى . لكن الإسلام لا توجد به الكثير من القواعد التي تتعارض بشكل كامل مع الحياة الأمريكية وعليه فإن "الإسلام الإصلاحى" ليس ضرورياً لبقاء المسلم الأمريكى^(١) .

وأنا أرى أن هذا التحليل يناقض مبادئ الشريعة، فنتيجة لوجود الاجتهاد فالإسلام هو إصلاحى وذو نظرة إلى الأمام بطبيعته . إصلاح كيان قانونى متحرك، ويتميز بالتغيير يعنى إضفاء القداسة على نتاج الفكر البشرى الذى يتغير بالزمن (الاجتهاد)، ومساواة قيمته الفقهية بقيمة المصادر الأخرى للشريعة، ولا يمكن لهذه النتائج الوجود بالتوازي مع السلطان التام الذى فى جانب القرآن وسنة النبى محمد ﷺ .

يقف الصواب إلى جانب «حسن» بخصوص أن المسلمين الأمريكين كانوا قادرين على الحفاظ بنجاح على مثالياتهم مع الازدهار بوصفهم أعضاء فى التعددية، ومع ذلك فليس ذلك هو إسلاماً إصلاحياً؛ لكنه إسلام فى أشد أشكاله أصالة، والأسلوب والبيئة هما وحدهما اللذان طالهما التغيير مثلما هو المفترض، وقد تقدم مقالة «حسن» المثال على تفسير الإسلام من خلال إطار الفعل (الفهم الغربى للدين) غير مؤهل لتناول ما هو أكثر من الدين، وليس ذلك تلاعباً بالألفاظ ودلالاتها، لكن ذلك هو مبادئ أساسية يتوجب فهمها من أجل الحوار بين المسلمين وأضرابهم من الأمريكين للنجاح داخل إطار عمل فكرى .

وتقليدياً، تعنى حرية الدين حتمية تيسير العبادة للمسلمين والآخرين، وينبغى فى الوقت الحالى أن يوجب المقصد الثالث للشريعة، وهو حفظ وحماية الدين والعبادة لكل الناس ولكل العقائد (ليس فقط للأديان التوحيدية)، بوصفه حقاً إنسانياً أساسياً، ويعتبر ذلك امتداداً للفهم البديهي للتعريف التقليدى كما يطبق حالياً .

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] (٢) .

من المهم أن نذكر معنى دقيقاً فى اللغة العربية لهذه الآية ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾

(١) أسماء جول حسن: المسلمون الأمريكيون- الجيل الجديد. ص ١٤٤ / ٢٠٠٠م .

(٢) حسان حتوت: قراءة العقل المسلم . ص ٤٦ / ١٩٩٩م .

بالنفي «لا»، بالمثل تبدأ الشهادة «لا إله إلا الله» بلغة صارمة ومباشرة وواضحة للدلالة على خطورة فرض الدين على الذى لا رغبة لديه، ويوضح هذا المثال الثراء الكامن فى اللغة العربية التى يمكن تطويعها لمثل هذا التأكيد.

«عندما يأمن المرء على حريته وكرامته الإنسائيتين، فسوف يتمتع بالسلطان التام على مصادر قوته وطاقته الإنسانية، سواء أكانت جسدية، أو فكرية، أو روحية- نفسية- معنوية، وبذلك يستطيع مواجهة التغيرات المختلفة فى ظروف الحياة بتوازن وتناغم، ويشكل ذلك بالنسبة للكائن البشرى أقصى دعم غير قابل للفشل ولن يتعرض أبداً للتراجع»^(١).

للمسلمين الحق وعليهم واجب الدفاع عن أنفسهم إذا تعرضوا لهجوم على الدين، وبالمثل إذا هوجم الآخرون نتيجة لأساليب حياتهم، فإن الواجب الإسلامى يملى الدفاع عن حريتهم الدينية.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدِمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

الجهاد

«الحرب ليست هى جوهر الجهاد، والجهاد الأكبر مثلما بين النبى محمد ﷺ هو أولا جهاد النفس: إنه يتضمن جهد كل مسلم من أجل أن يصبح إنساناً أفضل، وأن يجاهد من أجل إصلاح نفسه»^(٢).

ويكتب د. ماهر حتوت:

«إنه ليس الحرب المقدسة: هذا النعت الذى صاغته الحروب الصليبية، وتم فرضه بشكل متكرر للغاية إلى درجة أنه حتى بعض المسلمين تبنوا هذا المصطلح الزائف نفسه، ويحدث ذلك على الرغم من حقيقة أنه لا مقدس فى الإسلام إلا الله... وكلمة (جهاد) مصدر فعلها (جَهَدَ) وتعنى بذل أقصى مجهود أو مشقة،

(١) فتحي عثمان: مفاهيم القرآن. ص ٧٣٩ / ١٩٩٧م.

(٢) أحمد راشد: ظهور الإسلام العسكرى فى آسيا الوسطى. ص ٤ / ٢٠٠٢م.

وتعنى الدلالة الدينية إلى النضال والمجاهدة من أجل الارتقاء والتحسين . . . ، وتعطى الحرب المقدسة الانطباع بأن الجهاد يهدف إلى إعلان الحرب ضد غير المسلمين فى جميع أنحاء العالم ؛ من أجل فرض الإسلام كعقيدة أو كنظام سياسى عن طريق القوة ، ويتجاهل مثل هذا الفهم أو عدم الفهم ، اللغة العربية والمصادر الإسلامية والممارسات التاريخية للمسلمين . يعلن الإسلام أن النضال الشرعى هو وحده له القدرة فى الدفاع عن حقوق الإنسان - متضمنة الحرية الشخصية ، وحرية العقيدة - بوصفها الشكل الصحيح للجهاد ، والجهاد مقصور على حالات العدوان والظلم . يتوجب على المسلم عند حدوث حالات العدوان والظلم أن يداوم على القتال العادل ، وأن يجنح إلى السلم بمجرد أن تسنح الفرصة لوقف القتال» (١) .

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴿ [الأنفال : ٦١ ، ٦٢] . ويسمح للمسلم بالجهاد بالنفس فقط لردع هؤلاء الذين يبدءون بالعدوان : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يِقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠] السلام والعدل يعلوان دائماً على الحرب عند أولئك الذين يخشون ربهم (٢) .

وظاهرة مساواة الجهاد بالحرب المقدسة هى مجرد لمحة من الحملة المغلوطة ضد الإسلام ، والجهاد مثله مثل مفاهيم كثيرة أخرى هو مفهوم مستخرج من القرآن (الذى يؤمن المسلمون بأنه كلمة الله) . إنه ليس بنظرية سياسية أو اجتماعية يمكن أن تتلاعب بها أهواء النشطاء (الفقهاء) ، إنه وسيلة للتزكية (تزكية النفس) ، وحدودها مبينة بوضوح فى القرآن ، والسنة النبوية ، واجتهاد العلماء (بما فيهم من غير المسلمين) خلال تاريخ الإسلام .

وإذا كان لدى «ستيف إيمرسون» ، و «دانيال باپيس» وغيرهما اهتمام بدراسة تطبيقات الجهاد فى الزمن المعاصر من خلال إلقاء النظر على التاريخ الخاص به ، فعلى الرحب والسعة . إنهم مضطرون رغم ذلك إلى إعطاء الخبرة التاريخية للجهاد وزنها الحقيقى داخل تحليلهم الشامل ؛ حيث لا تمثل التطبيقات التاريخية مجمل - ولا حتى معظم - العناصر الداخلة فى فهم الجهاد .

(١) ماهر حتوت : الجهاد فى مقابل الإرهاب . ص ١٧ ، ١٨ ، ٢١ ، ٦٧ / ٢٠٠٢م .

(٢) المصدر السابق . ص ٦٧ / ٢٠٠٢م .

تلك هي القواعد الفقهية للموضوع الذى يحاولون تحليله ، وما يشير عجبى أن هؤلاء المهتمين بالتناول الفقهى للإسلام- مثل «إيمرسون» و «بايس»- لا يرون أنه يتوجب عليهم اللجوء إلى الخبراء والمرجعيين من المفكرين المسلمين ، إذا لم يستطيعوا معرفة البناء التحليلى الموجود فى القرآن ، فلا قيمة إذن لآرائهم عن الموضوعات المتعلقة بها .

لا يستطيع المرء أن يشرح قواعد لعبة البيسبول عن طريق عرضها على ملعب الكرة الطائرة (الثولى بول) ، وبدون أن يكون قد رأى أية كرة طوال حياته .

هؤلاء الذين يحاولون إعادة تعريف كلمة «الجهاد» ، سوف يهاجمون فى القريب العاجل مفاهيم أخرى ، ويلوون أفكاراً أخرى لتلائم أهدافهم السياسية ، ويبدو أن الأصوليين المحافظين (الذين يقودهم اللوى الصهيونى) فى أمريكا يعملون بأقصى جهدهم للحفاظ على تشويش الرؤية حول الإسلام وحول أهله .

لقد قاد العنف الموجه ضد هذه الكلمات- وسوف يقود- إلى عنف ضد المسلمين وإلى لامبالاة بنضالهم . والتعريف بالذات هو من حقوق الإنسان الأساسية ، ونحن نستحق الحصول على هذا الحق ، مثلما يحوزه الأمريكىون تجاهنا .

السياسة والديموقراطية

«نحن نجد عند دراستنا لحالة الإسلام أن مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة غير قابل للتطبيق بالبديهية . فى حين أن لا وجود فى المسيحية (لتعاليم محددة حول) للدولة ، فلا وجود فى الإسلام لكنيسة ؛ مما يجعل من المستحيل قياس أحد الموقفين على الآخر ، ويجب فتح المكاتب على أساس المؤهلات الشخصية ، وأن تتسع الوظائف لكل من المواطن المسلم وغير المسلم»^(١) .

وحيث لا وجود لكنيسة ، فلا وجود لكهنوت أيضاً . الألقاب مثل الإمام ، والشيخ ، والملا ، وحجة الإسلام ، وآية الله . . . تشير إلى خبرة أو إنجاز أكاديمى (رسمى أو غير رسمى) بالمثل لا وجود لـ «صراط مستقيم» أو «طريق داخلى» إلى

(١) حسان حتوت : قراءة العقل المسلم . ص ٥١ ، ٥١ / ١٩٩٥ م .

الله يمر من خلال وسطاء من البشر، ولا وجود تحت مظلة الشريعة لقادة علويين يملكون سلطاناً غير مقيد للحجْر على إرادة الناس . ولهذا الأمر وضوح أشد في مدارس الفكر السنّي .

«ووفقاً للقرآن، فإن الحاكم هو الشخص الذي يستمد سلطته من الشعب، وبذلك يكون مسئولاً أمامهم»^(١). وعقب وفاة النبي محمد ﷺ، تم اختيار خليفته من خلال مناقشة مفتوحة شهدت أكثر من مرشح، يجمع الدكتور حسان تحتوت القواعد الرئيسية التي تحكم عملية اختيار الحاكم من خلال أفعال أبي بكر: ١- الحصول على المنصب عن طريق التفويض الشعبي (الناس) [استقصى أبو بكر آراء الناس الذين لم يكونوا حاضرين للثبث من موافقتهم].

٢- الحصول على المنصب مشروط باقتران حق الناس في إعطاء التفويض، مع حقهم في سحبه «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم».

٣- الحاكم هو خادم الأمة.

٤- رئاسة الدولة ليست رهينة في يد الصفوة، أو أهل الحسب، أو جماعات المصالح «الضعيف منكم قوى عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله»^(٢).

وأنا لا أفترض أنه ينبغي التطبيق العلمي لخبرة أبي بكر على جميع الأوضاع؛ فإن الوضع الذي أعقب وفاة النبي ﷺ، أظهر كيف دارت عجلة النفسية الإسلامية الجماعية عند أحد المواقف التاريخية، ولسوء الحظ فقد ضلت معظم الحكومات التي قامت باسم الإسلام منذ ذلك الوقت عن المفهوم العميق للقاعدة الجماعية.

«ويعتبر القرآن الشورى (عملية صنع القرار الجماعي) أحد الأعمدة الرئيسية

(١) فتحى عثمان: الإسلام وحقوق الإنسان (من كتاب إعادة التفكير في الإسلام والحدائثة) ص ٣٠. ويأتى هذا المفهوم من الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ [النساء: ٥٩].

(٢) حسان تحتوت: قراءة العقل المسلم. ص ٥٨.

لمجتمع المسلمين، وبالتالي يعترف بدور الناس في صناعة السياسة أو القرار؛ وفي الحقيقة ترتبط الشورى في القرآن بطاعة الله، وإقامة الصلاة والإنفاق على حاجات المجتمع^(١). ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

وسوف يشابه مفهوم الشورى عند التطبيق الديموقراطية أو الجمهورية، ولا تشكل صورة الديموقراطية في الولايات المتحدة الأمريكية نموذج التطبيق الخالد، فأى شكل من الحكومة النيابية ذات الشرعية هو نظام ديموقراطى. هناك وفرة من الدول حول العالم تجرى بها الانتخابات (وبعضها ذات شرعية) وتمخض عن وجود البعض الذين لا يمثلون شعوبهم لسبب أو لآخر، تلك ليست بديموقراطيات، هناك نماذج ملموسة لحكومات نيابية في التاريخ الإسلامى.

يكتب الدكتور مراد هوفمان:

«لقد أوضح "محمد أسد" في عمله الرائد (مبادئ الدولة والحكومة فى الإسلام ١٩٦١م) أن الكومنولث الإسلامى النموذجى هو دولة تحت حكم القانون، وجمهورية برلمانية لها دستور يتوافق مع الدساتير الغربية فى جميع النقاط الجوهرية - فصل السلطات، وقائمة الحقوق، والتعددية الحزبية، وحماية الأقليات - طالما يضمن وجود مسلم على رأس الدولة؛ حيث إن الإسلام هو دين الدولة وأن القرآن هو المعيار الدستورى الأعلى»^(٢).

كل مرحلة لها معاييرها، وفى وقت وفاة النبى ﷺ، فإن مفهوم الحكم من خلال صوت الأغلبية كان مفهومًا تقدميًا، وبالمثل مع اجتهاد العلماء يمكن إنزال هذه المبادئ الأساسية للحكومة على السياق المعاصر للدولة الناجحة، فمن المهم أن نذكر أن الدولة ليست وحدها التى تطبق أيًا من هذه المفاهيم؛ حيث تنطبق ثقافة الشريعة الإسلامية على كل الأوضاع والمقاييس، فمن ثم ينبغى تطبيق قاعدة «الحكم بإرادة الأغلبية» فى المسجد على سبيل المثال، مثلما فى الدولة.

(١) فتحى عثمان: الشريعة فى المجتمع المعاصر . ص ٦٣ .

(٢) مراد هوفمان: الإسلام كيدل . ص ٨٢/١٩٩٧م .

حقوق الإنسان

«لا وجود لاختلافات رئيسية بين المنظور الغربي وبين المنظور الإسلامى للعلاقة المثالية بين المواطن وبين الدولة، وعلى أساس من القرآن فإن الحقوق الأساسية التالية هى حقوق مكفولة: الحياة، وحرمة الجسد، والحرية، والمساواة فى المعاملة - عدم التمييز - والملكية، وحرية الضمير، والزواج، وحق التقاضى، وأولية البراءة، وعدم إيقاع العقوبة قبل الإعلام بها، والحماية من التعذيب، وحق اللجوء... منذ ألف وأربعمائة عام مضى»^(١).

وربما يكون من المذهل للغاية فى السياق القرآنى تلك التوجيهات المفصلة بخصوص محاسبة الذات، التى تقوم هى والحرية الدينية للأقليات كشاهدين ودليلين على التسامح العميق للإسلام^(٢).

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

ويضع الدكتور ماهر حتحات عنواناً لتفسيره للآية السابقة يقول «الكرامة الإنسانية»: «للكرامة الإنسانية مفهوم أعرض من حقوق الإنسان؛ حيث تشمل الكرامة التمتع بالحقوق مع أداء الواجبات جنباً إلى جنب، ولقد كفل الله الكرامة للإنسان منذ خلقه، وهكذا يتكامل الاعتراف بالكرامة الإنسانية مع الهيكل الاعتقادى للمسلم إلى الدرجة التى لا يمكن للأفكار الفلسفية أو القوانين أن تميظ عنها اللثام»^(٣).

ويبرهن د. فتحى عثمان على أن حقوق الإنسان والإيمان بالله لا ينفصلان: «الدفاع عن حقوق الإنسان لأى كائن بشرى هو واجب دينى على المسلم؛ لأنه يؤمن بأن الظلم ليس إلا إعاقة لإرادة الله ولستته فى خلقه»^(٤). يمثل أى تمييز ضد الفرد أو الجماعة فيما يتعلق بالحقوق الأساسية بوصفهم أعضاء فى الجماعة

(١) المصدر نفسه . ص ١١٣ .

(٢) المصدر السابق . ص ١١٤ .

(٣) ماهر حتحات: الجهاد فى مقابل الإرهاب . ص ٣٣ .

(٤) فتحى عثمان: الشريعة فى مجتمع معاصر . ص ١٠ .

الإنسانية، نقيضاً للإيمان؛ لأن ادعاء أى إنسان بسموه نتيجة المنشأ أو السلطة، يتعارض مع الإيمان بوجود واحد أعظم مطلق^(١). وتتضمن الحقوق الإنسانية التي تحفظها هذه المقاصد الخمسة (مقاصد الشريعة الخمسة)، الحقوق المشتركة للجماعات والشعوب، وحقوق الأفراد بالمثل، كما تتجاوز الحقوق السياسية والاجتماعية جنباً إلى جنب^(٢).

وفى حديث للرسول ﷺ: «الناس سواسية كأسنان المشط. كلكم لآدم، وآدم من تراب. لا فضل لأبيض على أسود، ولا لعربي على عجمي إلا بالتقوى»^(*)، ولقد صرح رسول الإسلام بهذا الحديث منذ ما يزيد عن ١٤٠٠ سنة مضت، وعندما ألقى محاضرات فى بلدة ليكسينجتون بفرجينيا، فأنا أجد مما يثير السخرية أن يمطرنى الحاضرون من طلاب المعاهد مثل المعهد العسكرى بفرجينيا، والمحافظون التقليديون من جامعتى نفسها بأسئلة تتعلق بالمساواة بين البشر، وبحرية الفكر.

وإذا كانت تلك هى طبيعة الإسلام، فلماذا التقديم لصورة المسلمين فى غاية السلبية؟ أنا أزعم أن جهل المسلمين يشكل الوقود الذى يحتاجه أعداؤنا فى العالم لإشعال حرائقهم من المستحيل بدون الاستيعاب لقواعد المفاهيم الإسلامية، أن نخرج بتحليل مفيد للقضايا التى تؤثر على المسلمين على مستوى العالم، والتى يجب أن تقع داخل حيز الواجب بقول الحق.

* * *

(١) المصدر السابق. ص ١١.

(٢) المصدر السابق.

(*) العزبة [٥٥].